

إشكالية العلاقة مع الغير

بقلم الاستاذ محمد بن الحسن الزهراوي

" وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا "

صدق الله العظيم

على سبيل التقديم

لعل من نافلة القول التأكيد على أن أحد أبرز وأهم الظواهر الاجتماعية التي تفشت في مجتمعنا المعاصر، المحلي منه والعالمي، ظاهرة العنف بشقيه المادي والرمزي. وهي ظاهرة باتت تفرض علينا أكثر من أي وقت مضى التفكير بعمق في إشكالية العلاقة مع الغير، هل ينبغي أن تكون علاقة عنف وصراع وإقصاء وتهميش، أم علاقة محبة وصداقة واعتراف ؟

أولاً: الغير، تعريفه، خصائصه.

يفيد مصطلح الغير على المستوى اللغوي وكما جاء في "لسان العرب" معنى: المخالف، والمتحول، والمنقول. أما على المستوى الفلسفي فقد حدد الفيلسوف والأديب الفرنسي "جان بول سارتر" الغير بكونه "الأنا الآخر الذي ليس بأنا"، وهو تعريف يساعدنا إلى جانب التعريف اللغوي المشار إليه أعلاه، على تحديد الخصائص المميزة للغير، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

1-التشابه: إن الغير يشبه الأنا في أنه بدوره "أنا" بالنسبة لنفسه، وغير

بالنسبة للآخر الذي هو الأنا.

2-الاختلاف: لم يكن الغير غيرا إلا لكونه يختلف عن الأنا الخارجة

عنه، اختلافا بيولوجيا، واجتماعيا، وثقافيا، وسياسيا، ونفسيا.

3-التعدد: فالغير ليس واحدا، وإنما هنالك غير قريب (الأخ، الأخت، الزوج،

الزوجة، الصديق ... الخ) وغير بعيد (الغريب الذي لا تربطنا به رابطة ما).

4-التغير: إن الغير لا يظل ثابتا ساكنا، بل يتحول ويتغير من غير قريب إلى

غير بعيد، ومن غير بعيد إلى غير قريب. هذا فضلا عن تحولاته البيولوجية،

والنفسية، والاجتماعية، والثقافية الفكرية، والسياسية

ثانيا : إشكالية العلاقة مع الغير:

يمكننا أن نميز في إطار الأطروحات التي تناولت هذه الإشكالية بين

المواقف التالية :

1- الموقف الرافض للغير :

وهو الموقف الذي ينظر إلى الآخر كشر يجب إقصاءه وتهميشه أو إبادة

بالعنف المادي.

ومن بين ممثلي هذا الموقف نذكر:

جان بول سارتر: يرى سارتر أن "... الآخر هو الجحيم". وحجته في

ذلك أنه — أي الغير — " ينظر" إلى الأنا، فيحولها بنظرته تلك إلى موضوع،

الشيء الذي يجعلها — أي الأنا- تفقد حريتها، وكرامتها، وإنسانيتها، وهو

ما يستلزم الدخول في صراع مع الغير.

جيرار جينيه: يتفق هذا العالم الأنثروبولوجي مع سارتر في أن العلاقة مع الغير هي أساسا علاقة صراع. إلا أنه يختلف معه في سبب هذا الصراع. فإذا كان سارتر يرجعه إلى "النظرة"، فإن جيرار جينيه يرجعه إلى "الرغبة في المحاكاة"، محاكاة الغير للأنثى، ومنافسته لها في رغباتها، الشيء الذي يؤدي إلى الصراع بينهما.

ج- الحركات العنصرية العرقية: وهي حركات تنادي بربط علاقة عنف وصراع مع الغير، تحت مبرر أنه ينتمي إلى عرق أخس من العرق الذي تنتمي إليه الأنثى، مما يستوجب إبادة.

ومن أبرز الحركات العنصرية العرقية التي عرفها العالم: النازية، الفاشية، الصهيونية، ونظام "الأبارتيد" في جنوب إفريقيا.

د- الحركات الدينية الجهادية المتطرفة: تميز هذه الحركات في الغير بين صنفين: صنف قريب، وصنف بعيد. فالغير القريب الذي ينبغي نسج علاقة صداقة ومحبة وتعاون معه هو الغير الذي يتبنى التصور الجهادي المتطرف للدين الإسلامي. أما الغير البعيد فيمثل الملاحدة، وأهل الكتاب، والمسلم المعتنق لتصور عن الإسلام يختلف عن تصور الحركات الدينية المتطرفة. إن العلاقة مع هذا الغير البعيد يجب أن تكون في نظر هذه الحركات علاقة عنف وصراع وإبادة.

2- الموقف المنفتح على الغير:

على النقيض من الموقف السابق الراض للغير تحت هذا المبرر أو ذاك، يؤكد أنصار هذا الموقف على أن العلاقة مع الغير ينبغي أن تكون علاقة صداقة ومحبة واعتراف.

ومن ممثلي هذه الأطروحة نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

سقراط: اشتهر سقراط بممارسة الحوار مع مواطني أثينا من أجل الوصول للحقيقة، اقتناعاً منه بأن الحقيقة لا يمكن التوصل إليها بالتأمل الفردي كما كان يعتقد "طاليس" و"أنكسمندر" و"أنكسيمنس" و"أنبادوقليس" ... وإنما تدرك الحقيقة من خلال وعبر الحوار المتبادل بين الأنا والغير، وهو حوار يستلزم ضمناً لكي يتأسس ويستقيم، وجود علاقة صداقة وتواصل مع الغير الذي نحاوره، إذ بدونها يستحيل إنجاز ذلك الحوار، كما يستحيل على الإنسان بلوغ الحقيقة.

ب- أفلاطون: في محاورته الشهيرة: "ليزيس" يشير أفلاطون فيلسوف المحبة والخلود، إلى أن الإنسان كائن نسبي يتأرجح بين النقص المطلق والكمال المطلق. لذا فهو في حاجة ماسة إلى ربط علاقة صداقة مع الغير لتجاوز نقصه، وإشباع حاجته إلى الكمال في نفس الوقت.

ج- أرسطو: خصص المعلم الأول أرسطو باباً في كتابه الشهير "الأخلاق إلى نيكوماخ" لموضوع الصداقة، بين فيه أن العلاقة مع الغير يجب أن تكون علاقة صداقة. وهي علاقة تفرضها على الإنسان الضرورات التالية:

- ضرورة طبيعية: وتتمثل في غريزة الحب الفطرية الكامنة في الإنسان، والتي تدفعه إلى ربط علاقة محبة وصداقة مع الغير.

- ضرورة إجتماعية: إن الإنسان في نظر أرسطو حيوان اجتماعي ناقص في حاجة ماسة إلى الغير لقضاء حاجياته، واستمرار حياته.

- ضرورة سياسية: يرى أرسطو أن الصداقة أهم من العدل، لأنها تلعب دورا كبيرا في تحقيق أمن واستقرار المجتمع وسعادة افراده.

إلا أن أرسطو قد ميز بين نوعين من الصداقة:

صداقة المصلحة واللذة: وهي صداقة سطحية عابرة مؤقتة، تنتهي بتحقيق اللذة والمصلحة.

صداقة الفضيلة: وهي صداقة دائمة تجمع بين الفضلاء والأخيار من الناس الذين يسعون إلى الخير فقط. ونظرا لندرة هذه الصداقة فقد قال أرسطو: " لا يوجد أصدقاء يا أصدقائي الأعزاء."

د- أبيقور: يرى هذا الفيلسوف أن مصدر بؤس وشقاء الإنسان هو الخوف. الخوف من الآلهة، والطبيعة، والموت، والغير. وبناء عليه فإن الطريق نحو تحقيق السعادة يكمن في التخلص من الخوف من الآلهة بالإيمان بأنها لا تهتم بالإنسان وبما يفعل، ومن الطبيعة بالعلم، ومن الموت بالاعتناع بأننا لن نواجه الموت ونحن في حالة وعي تام سواء في الحياة (لأننا أحياء والموت غير موجود) أو عندما نموت (لأننا في الموت لا نعرف أننا أموات). أما الغير فيمكن التخلص من الخوف منه بربط علاقة صداقة معه. وبذلك يعيش الإنسان في سعادة تامة.

هـ- فرنسيس بيكون: إن العلاقة مع الغير في نظر هذا الفيلسوف الإنجليزي ينبغي أن تكون علاقة صداقة، نظرا للفوائد الكثيرة التي يجنيها الإنسان منها ومن أهمها:

أن الصداقة تساعد على الإفراغ السيكولوجي، فتحقق بذلك سعادة الفرد.
أنها تصحح الفكر. ولهذا قال بيكون: "إن قضاء ساعة واحدة مع صديق أفضل من قضاء يوم كامل في التفكير".

أنها تعمل على أنسنة الإنسان وتحريره من التوحش.

أنها تحقق رغبة الإنسان في الخلود.

ح- إمانويل كانط: على غرار الفلاسفة السابقين، أكد فيلسوف النقد "كانط" على أن العلاقة مع الغير ينبغي أن تكون علاقة حب واحترام. فالحب يوجب على الإنسان أن يجعل من غايات الآخرين غايته، والاحترام يحتم عليه عدم الاستعلاء عليه، وعدم معاملته كوسيلة لتحقيق مصالحه الشخصية، وإنما معاملته كغاية في ذاته.

ط - هيغل: من خلال تحليله الشهير لجدل الصراع بين السيد والعبد، انتهى هيغل إلى إثبات أن العلاقة بين الأنا والغير يجب أن تكون علاقة اعتراف متبادل بالسيادة. ذلك أن السيد عندما انتصر على الغير وحوله إلى عبد، وفرض عليه العمل، فقد حرّيته (لأنه أصبح تابعا للعبد الذي يعمل)، وكرامته وإنسانيته (لأن انقطاعه عن العمل جعله بمثابة حيوان يستهلك ولا ينتج بوعي مثله مثل باقي (الحيوانات) الشيء الذي جعل السيد في النهاية

يقتنع بأنه لكي يظل سيدا حرا يجب أن يعترف بالغير كسيد حر، وأن لا يحوله إلى عبد.

ي- ماكس شيلر: أكد هذا الفيلسوف الألماني بدوره على أن العلاقة مع الغير يجب أن تكون علاقة حب، إذ أن هذه العلاقة تحطم ثنائية "الأنا" و"الأنثى" لتحل محلها وحدة "نحن"، وهي وحدة تساعد على معرفة كل ذات للأخرى.

ك- إريك فروم: نادى هذا الفيلسوف والعالم المؤسس للفرويدية الجديدة في كتابه "ما وراء الأوهام"، بضرورة ربط علاقة أخوة وتواصل إنساني مع الغير، لأن هذه العلاقة تسهم في معرفة كل طرف للآخر، كما أنها تسهم بشكل كبير في قيام مجتمع إنساني متضامن .

ل- فلسفية الاختلاف: ومن أبرز ممثليها: "جيل دولوز" و"دريدا" و"ميشال فوكو" و"كرستيفا"... فقد رفض هؤلاء الفلاسفة التصور الميتافيزيقي المتوحش عن الهوية، والذي يختزلها في مكون واحد، رافضا مكونات الهوية الأخرى داعيا إلى تهميشها والدخول في علاقة عنف وصراع معها.

فعلى النقيض من هذا التصور التقليدي نادى فلاسفة الاختلاف بتصوير جديد عن الهوية، تصور يعتبرها هوية منفتحة، مكونة من عناصر متعددة متفاعلة مع بعضها مما يحتم عليها ضرورة التعايش بينها، وربط علاقة

احترام، وصداقة، واعتراف مع بعضها البعض ولهذا قالت "جوليا كرسيفا": إن الغريب يسكننا على نحو غريب".

3- الموقف الثالث: العلاقة مع الغير ينبغي أن تكون علاقة صداقة وصراع

لعل من أبرز ممثلي هذا الموقف الفيلسوف الفارابي، وأديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء "التوحيدي".

فقد ميز الفارابي في إطار حديثه عن الغير بين الغير القريب الذي يجب أن تجمعنا معه علاقة صداقة لبناء المدينة الفاضلة، والغير البعيد "العدو" الذي يجب الدخول في صراع معه.

وإذا انتقلنا إلى التوحيدي فإننا نجده يؤكد تارة على ضرورة ربط علاقة صداقة مع الغير، لأن الإنسان حيوان اجتماعي في حاجة دائمة إليه، وتارة ينادي بالدخول في علاقة عنف وصراع معه لأن الإنسان عامة شرير بطبعه.

على سبيل الختم

بعد أن استعرضنا مواقف المفكرين والفلاسفة والعلماء من إشكالية العلاقة مع الغير، يمكننا أن نقول أن عصرنا الحاضر، عصر العولة الذي تحول فيه العالم إلى قرية صغيرة، قد أصبح يفرض علينا تجاوز التصور الوثوقي الميتافيزيقي المتوحش عن الهوية باعتبارها هوية نقية خالصة لا تتأثر بغيرها من الهويات التي أصبحت تتداخل وتتفاعل معها بقوة عبر وسائط متعددة من أبرزها وسائط الاتصال الحديثة.

انطلاقاً من هذا المعطى نؤكد على أن العلاقة مع الغير لا ينبغي أن تكون في نظرنا المتواضع علاقة عنف وصراع، أو علاقة صداقة فقط، وإنما ينبغي أن تكون علاقة صداقة وصراع ديمقراطي قائم على المنافسة الحرة الشريفة واحترام الغير، والقبول باختلافه عن الأنا. فهذا النوع من العلاقة هو الذي يسهم ومن شأنه أن يسهم في تطور الأنا والغير. والله أعلم.